ثقافة التسامح والتعايش في الحضارة الإسلامية: الموسيقا والغناء بالأندلس أنموذجين

أ.د.شعيب مقنونيف*

الملخص:

يختص مقالي بالمجتمع الأندلسي الذي عُرف بالتّعدّد والاختلاف والتّنوع؛ إنْ على مستوى الأجناس المتساكنة فيه من العرب والبربر، الفاتحين والوافدين، والروم والمولّدين والصقالبة والزنوج والقوط، وإنْ على مستوى الأديان والعقائد، مثل الإسلام واليهودية والمسيحية، وإنْ على مستوى اللّغة كالعربية الفصحى منها والعامية، والعبرية، واللاتينية و الأمازيغية.

فتأسّست حياة هذه العناصر، جميعها، وقامت على التسامح الدّيني والتعايش الاجتماعي والتفتح الثقافي في سلام وطمأنينة وتآلف وتآزر، بفضل حرص الخلافة الإسلامية منذ الفتح على احترام هذه التعدّدية وهذا الاختلاف والتنوّع، وذلك لأن هذا كلّه مقتبس من مبادئ الإسلام السمحة الداعية إلى الحق والعدل والمساواة والوئام والسلام.

وتشير حركية تواصل الثقافات والتقاء المعارف الفنية، والموسيقية بين هذه العناصر إلى قيام مجتمع، كان، ولا يزال حتى اليوم، في نظر العديد من الدارسين، **يشكل الأنموذج الأمثل للمجتمع المشبع بروح التسامح والتعايش**، وقد نالت الموسيقا والغناء، بوصفهما فنين، مكانة بارزة في هذه المدنية إذْ ولع بها المجتمع الأندلسي، بكل أطيافه، فكانت بمثابة **اللغة المشتركة التي يفهمها كافة عناصره وافراده**، ويعبرون بوساطتها عن مشاعرهم وأحلامهم.. لغة يُسهم الجميع، دونما تمييز في الجنس أو المعتقد، في إبداع كلماتها وألحانها، وفي ممارستها أو الاستماع إليها، لغة تقرّب وتؤلّف بين الجميع، فجاءت ألحانها مرآة عاكسة للميول الموسيقية لكل الأجناس المكونة لهذا المجتمع، وشاهدة على مدى ما كان من ترابط وتمازج وتعايش وتعاون وتسامح في ظل الحضارة العربية الإسلامية.

* أستاذ باحث في تاريخ الحضارة الإسلامية جامعة تلمسان، الجزائر.

ولتأكيد هذه الفرضية، **تسعى ورقتي العلمية** الموسومة بـ: " **ثقافة التسامح والتعايش في الحضارة الإسلامية: الموسيقا والغناء بالأندلس أنموذجين** "، لإعطاء صور عن التسامح والتعايش اللذين سادا بين مختلف الأعراق والديانات المتنّوعة، كما تمثلتها الموسيقا والغناء بالأندلس وذلك في مستويات ثلاثة هي:

1- مستوى النص الشعري، 2- مستوى اللحن، 3- مستوى الأداء. مستهلين الحديث عن ولع أهل الأندلس بالموسيقا والغناء، ومختتمين البحث بتظهير إشعاع الموسيقا الأندلسية.

الكلمات المفتاحية: ثقافة التسامح، التعايش، الحضارة الإسلامية، الموسيقا، الغناء، الأندلس.

Abstract:

The Culture of Tolerance and Coexistence in the Islamic Civilization: Music and Singing in the 'Al Andalus 'Civilization

This research paper shed light on the social diversity of the 'Al-Andalus' civilization and the main tenets of its development and prosperity for over eight centuries throughout two main and related examples: the singing and music.One of the main criteria on the Andalusian society was its plurality, difference and diversity; a mixture between different people and races: Arabs and Berbers, conquerors and expatriates, Romans and Mestizo, Slaves, Negroes and Goths; converted to different religions and faiths, such as Islam, Judaism and Christianity, speaking different languages such as Arabic, including classical and vernacular, Hebrew, Latin and Berber. Under the flag of the Islamic principles based on tolerance, justice, equality , harmony and peace.

the Andalusian society became a model based on the religious tolerance, social coexistence, cultural openness and synergy of the nation.

In such environmentrich of tolerance and coexistence, a multicultural and cross-cultural atmosphere had been established and thus was clearly reflected in all fields including literature, art and architecture.Music and singing gained a prominent position in this area asapart of the Andalusian society. It was considered as a common language that is understood by all of its elements and members, the way to express their feelings and dreams, without distinction of sex or belief, in the creativity of lyrics and melodies, and in practice or listen to, the melodies reflected musical inclinations each component of this society, and witnessed the extent of what was the core of the blending and coexistence, cooperation and tolerance in light of Arab-Islamic civilization.

In fact Music and singing become the mirror of a society where Jewish and Christians had the same equal rights and duties as Muslims with no distinction and no segregation .A nation where tolerance and freedom can be considered as a model for other societies a long time and space.To confirm this hypothesis, this scientific papers entitled "a culture of tolerance and coexistence in the Islamic civilization: music and singing in'Al-Andalus' ", has been elaborated in order to depict the images of tolerance and coexistence that are prevailed among the various races and various religions in music and singing throughout three levels are: 1 levels poetic text level, 2. the level of melody, 3. performance.by describing the passion of the people of Andalusia in music and singing off, and find endorsement radiation Andalusian music.

Key words :Culture of Tolerance ; Coexistence; Islamic Civilization ; Music Singing ; Al-Andalus.

مقدمة:

إنّ الحضارة الإنسانية أخذٌ وعطاءٌ أو دَيْنٌ ووفاءٌ، وقيمة كل أمّة هو قسطها الذي قامت به في إغناء هذه الحضارة، ولعلّه من الأفيد، التذكير بالدّور الطليعي الذي قامت به الحضارة العربية الإسلامية، ممثّلة في الثقافة، خير قيام في تشييد النهضة العلمية العالمية، حيث نقل العلماء العرب والمسلمون التراث الإغريقي واليوناني والفارسي وما إليه من ألوان التراث العلمي الذي سبقهم في التواجد، نقلوه إلى اللغة العربية، التّي كانت لغة علم وثقافة وتواصل وتخاطب، وأثّر العلماء العرب والمسلمون في النهضة الأوربية، فهذا الكاتب الفرنسي " روبير بريفو " يصرّح بموضوعية في هذا الأمر، والفضل ما شهدت به الأعداء، قائلا: << بينما بدأت قصص الفروسية الأجنبية، المثيرة للمشاعر، تلوح في أوروبا خلال القرون الوسطى، وأخذت الأساطير السلتية الملهبة للخيال تستنشق أولى أنفاسها، ازدهر في جنوب فرنسا شكل أدبّي، أجنبيّ هو أيضاً عن الأدب الأوروبي التقليديّ، وهبّت في كل مكان نفحات إلهام غنائي جديد، فنقلت الخصب إلى اللغات المحلية العامية التي كانت وقتذاك في بدء تكوّمها. وانتشرت في إقليم "بروفانس" أشعار عاطفية ذات معان منتقاة، وصياغة مدروسة متقنة، فتجاوبت مع الحالة الفكرية لمجتمع إقطاعي بدأ ينشد متعة فراغ مزدان بالظرف والبهجة بعدما استشف أبهة الشرقيين في إسبانيا، وتأثر بسمو مشاعرهم؛ وفطن عندئذ لخشونته البربرية >>[1].

وكانت خصائص الثقافة العربية الإسلامية غالبة وواضحة ومؤثّرة في العديد من المجالات العلمية والفكرية والأدبية والثقافية والاجتماعية، مثل ابتكار نظام الترقيم والصفر والنظام العشري، ونظام الدورة الدموية الصغرى، وقياس سرعة الضوء وتقدير زوايا الانعكاس والانكسار، وتقدير محيط الأرض، وتحديد أبعاد الأجرام السماوية، وابتكار الآلات الفلكية، واكتشاف أعالي البحار[2]، ونشر ثقافة التّسامح[3] القائمة على الاختلاف والتّنوع، والتعايش الاجتماعي، وحرية المعتقد[4]، وإن كانت أحكام أهل الذّمة المبثوثة في كتب الفقه القديم هي من مفهوم وتأويل بعض الفقهاء بحسب أوضاع ظرفية، وليس من صلب الدّين نفسه. وما عرفته بعض الأصقاع الإسلامية في بعض الفترات المظلمة من اضطهاد للأقليات الدّينية مثل اليهودية والمسيحية، لم يكن سوى شذوذا عن القاعدة الأصلية، وهو على العموم يُفسّر بطغيان الحكام واستبدادهم الذي طال مختلف الرعية؛ بما في ذلك المسلمين. فتعايش الإسلام وتحاوره مع الديانتين اليهودية والمسيحية كما أقرّه الرسول، صلى الله عليه وسلّم، سلوكًا وممارسةً، ووضع أصوله، ثم سار على هديه الكريم خلفاؤه الراشدون، ومِن بعدهم بعض الأمراء والخلفاء في شرق البلاد الإسلامية وغربها، يرتكز، في اعتقادنا، على أربعة مبادئ أساسية هي: قَبُول الاختلاف والتنّوع، وعدم الإكراه على الدّين، والتعاون على البّر والتقوى، وتحريم العدوان وتقييد الحرب بمواثيق أخلاقية وتربوية.

ولعمري أن هذه المبادئ تشكل خلفية ثمينة وصالحة لحوار مستقبلي ناجع ومنفتح بين الديانات وكذا الحضارات والثقافات. لا سيما حين نقرأ عن بلاد الأندلس بأنّه << لم تكن هناك وقتذاك حواجز من الكراهية والعداء بين الأجناس والأديان على نحو ما نتصوره في الوقت الحاضر. وقد نشأت فكرة خاطئة عن العلاقة بين المسيحيين والعرب في شبه الجزيرة الإسبانية، ومرجع هذه الفكرة إلى حكايات وهمية عن تلك الحقبة لفّقها الملفّقون بعد انقضائها بمدّة من الزمن>>[5] ، كما أنّه لم << تكن في إسبانيا حدود، بالمعنى الذي نفهمه اليوم، بين البلاد التي يحتلها العرب، والبلاد التي يحتلها الأوروبيون، وإنما قامت بينها سهول شاسعة اعتاد المسلمون والمسيحيون أن يتلاقوا فيها ويخالط بعضهم بعضاً>>[6] ، و قريب

من هذين الرأيين ما نقرأه عند المستشرق الإيطالي" فرانشسكو جابرييلي"، وهو بصدد الحديث عن منزلة الحضارة العربية الإسلامية، يقول:<< لم تكن قرطبة وحدها، خلال أيامها الزاهرة في القرن العاشر، مركزا هاما للثقافة العربية الأندلسية، ولكن طليطلة وإشبيليا وغرناطة، وبلداناً ريفيةً أخرى، كانت كذلك مراكز كبرى لهذه الثقافة، بل لقد ظل بعضها على تلك الحال **حتّى بعد أن استردها المسيحيون**... ولم يكن النشاط الفكري والروحي يعرف في تلك الآونة الخصبة التي امتدّت حتى القرن الثالث عشر **أية حدود سياسية أو دينية**، بل **ظل فخراً للحضارة العربية**، وما نما من قبساتها في التربة الأوروبية>>[7] .

لذا يمكننا القول إن الحضارة العربية الإسلامية كانت واسطة العقد بين العلوم والثقافات القديمة وبين النهضة الأوروبية، إذْ الفكر العربي الإسلامي، والثقافة العربية الإسلامية، سلسلة متّصلة الحلقات[8] ، امتدّت من الحضارات القديمة؛ من مصرية، وآشورية، وبابلية، وصينية، إلى حضارة الإغريق، إلى العصر الإسلامي الذي تأثر علماؤه بمن تقدّمهم، وأثروا بدورهم في من لحِقَهم من علماء النهضة الأوروبية الذين تتلمذوا للعلماء العرب من طريق مؤلّفاتهم المنقولة والمترجمة إلى اللغة اللاتينية واللّغات الأوروبية لذلك، وكما يقول المؤرّخ ت.كولر يونغ: << إنّ الدَّيْنَ الثقافي العظيم الذي ندين به للإسلام منذ أن كنا نحن المسيحيين، خلال هذه الألف سنة، نسافر إلى العواصم الإسلامية، مشرقا ومغربا، وإلى المعلمين المسلمين ندرس عليهم الفنون والعلوم وفلسفة الحياة الإنسانية، يجبُ التذكير به دائماً>> [9] ، بل ينبغي أن نُعجب أشّد العجب، بهذه الحضارة، لأنّها لم تكن امتداداً حضارياً لبقايا حضارات غابرة، أو لهياكل حضارية محلية على قدر من الأهمية، كما لم تكن أخذاً لنمط حضاري موجود، أو تقليداً بُنسج على منواله المعهود، كما هو شائع في الأمم الأخرى مهد الحضارات في الشرق، إنّ العرب بثقافتهم هم الذين أبدعوا هذه الروعة الحضارية إبداعاً.

ومن نافلة القول التذكير، بأنّ فترة ازدهار الحضارة العربية قد سبقت مباشرة فترة ازدهار الحضارة الأوروبية الحديثة، وبما أنّ الحضارات تأخذ عن بعضها بقدر ما تتقارب في الزمن، فلقد كان لعملية الإحراز على قصب السّبق في ميدان النشاط

الحضاري العالمي بين العرب والأوروبيين عند نهاية العصر الوسيط تفاعل أو تماس واضح، أدّى في النهاية إلى استلام أوروبا للمشعل من العرب والسير به قدُما وبخطوات جبّارة [10].

ولنا أن نتساءل عن مصدر هذه الخصائص والمميّزات والقيّم التي تفرّدت بها الحضارة العربية الإسلامية ؟؟!

ممّا لا شّك فيه أنّ من أهم ما يميّز الحضارة العربية الإسلامية أنّ رسالة الإسلام تهدف إلى احترام الإنسان في العالم، لأن رسالة الإسلام التي بشّر بها الرسول، صلى الله عليه وسلّم، وحملها العرب إلى النّاس كافّة والعالم أجمع تتجلى فيها النّزعة الإنسانية القائمة على احترام الآخرين، ونقلهم<< من أجواء الحقد والكراهية والتفرقة والعصبية إلى أجواء الحب والتسامح والتعاون والتساوي أما الله، ولدى القانون، وفي كيان المجتمع تساويا لا أثر فيه لاستعلاء عرق على عرق، أو فئة على فئة، أو أمّة على أمّة>> [11]، والتي أثبتتها، أعني النزعة الإنسانية، بوضوح تّام، نصوص القرآن الكريم [12]. والسنّة النبوية المطّهرة [13]، وأعمال الصحابة [14]، رضوان الله تعالى عليهم، والتابعين، والخلفاء، وأولي الأمر من المسلمين، والشعوب الإسلامية جمعاء.

أولا- ولع أهل الأندلس بالموسيقا والغناء

إنّ المجتمع الأندلسي الذي عُرف بالتّعدّد والاختلاف والتّنوع؛ إنْ على مستوى الأجناس المتساكنة فيه من العرب والبربر (الأمازيغ)، الفاتحين والوافدين، والروم والمولّدين والصقالبة والزنوج والقوط، وإنْ على مستوى الأديان والعقائد، مثل الإسلام واليهودية والمسيحية، وإنْ على مستوى اللّغة كالعربية الفصحى منها والعامية، والعبرية، واللاتينية والأمازيغية. فتأسّست حياة هذه العناصر، جميعها، وقامت على التسامح الدّيني والتعايش الاجتماعي والتفتح الثقافي في سلام وطمأنينة وتآلف وتآزر، بفضل حرص نظام الحكم منذ الفتح على احترام هذه التعدّدية وهذا الاختلاف والتنوّع، وذلك لأن هذا كلّه مقتبس من مبادئ الإسلام السمحة الداعية إلى الحق والعدل والمساواة والوئام والسلام. وتشير حركية تواصل الثقافات والتقاء

المعارف الفنيّة، والموسيقية، بين هذه العناصر إلى قيام مجتمع، كان، ولا يزال حتى اليوم، في نظر العديد من الدارسين، يشكل الأنموذج الأمثل للمجتمع المشبع بروح التسامح والتعايش، ضف إلى ذلك أن عوامل أخراة ساعدت على ظهور وازدهار مدنية لامعة أسهمت بنصيب وافر في إغناء التراث الحضاري الإنساني بعطاءاتها المتميّزة في كل ميادين العلم والفكر والأدب والفن والعمارة..

وقد نالت الموسيقا والغناء، بوصفهما فنين، مكانة بارزة في هذه المدنية إذْ ولع بها المجتمع الأندلسي، بكل أطيافه، كما لم يولع بها مجتمع آخر، فكانت بمثابة اللغة المشتركة التي يفهمها كافة عناصره، ويعبرون بوساطتها عن مشاعرهم وأحلامهم.. لغة يُسهم الجميع، دون تمييز في الجنس أو المعتقد، في إبداع كلماتها وألحانها، وفي ممارستها أو الاستماع إليها، لغة تقرّب وتؤلّف بين الجميع، فجاءت ألحانها مرآة عاكسة للميول الموسيقية لكل الأجناس المكونة لهذا المجتمع، وشاهدة على مدى ما كان من ترابط وتمازج وتعايش وتعاون وتسامح في ظل الحضارة العربية الإسلامية.

ولمّا تميّز الحكم الإسلامي في الأندلس، عبر مختلف مراحله وأطواره، بتوّخي التسامح والتساهل والتعايش وإشاعة الخير والبّر بالشعوب من نصارى ويهود البلاد، أو ما يعبّر عنه بالآخر، فترك لهم كامل الحرية في أن يبقوا على دينهم طالما آثروه على غيره من الأديان وشملهم برعايته وحمايته، كما سوّى بينهم في الحقوق على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم، تجلّت صور هذا التسامح فيما يختزنه التراث الموسيقي الأندلسي من معطيات ومقومات فنيّة تمتّ إلى أصول متعدّدة، وتؤكد في الوقت نفسه، البعد الكوني لهذا التراث الذي يتجاوز المنطقة التي ترعرع وأينع فيها إلى آفاق إنسانية رحبة مثلتها مكونات المجتمع الأندلسي ذات الأصول المختلفة.

لقد حظيت الموسيقى والغناء بعناية كبيرة وانتشرا انتشارا واسعا في الأندلس طيلة الحكم الإسلامي، وتعدّدت مظاهر الحفاوة والتكريم والتقدير التي أحيط بهما رجالاتها، وهكذا نجد على سبيل المثال أن الخليفة عبد الرحمن الداخل يبذل الأموال الكثيرة في شراء المغنيات من المشرق، نذكر منهنّ الجارية العجفاء، جارية أحد موالي بني زهرة وإحدى مغنيات المدينة 15. أمّا الخليفة الحكم الأوّل (796-

822 م) فقد كان أكثر أمراء بني أمية عناية بالغناء والموسيقا، حيث ضّم إلى قصره عددا كبيرا من الجواري المغنيات، فضلا عن استقدامه لمغنين ومغنيات من المشرق مثل علون و زرقون، وسمع بزرياب في العراق، فأرس في طلبه، إلاّ أنّه توفي قبل وصول زرياب 16. ولمّا تولى ابنه عبد الرحمن الثاني(822-852م) الخلافة جدّد الدعوة إلى زرياب يحثّه على المجيء.. ويخرج بنفسه لاستقبال زرياب عند مقدمه إلى قرطبة سنة 822 م.. ودخل زرياب الأندلس وأحدث ثورة عارمة عفّت على آثار من سبقه بتجديداته وبدعه، حيث أضاف << إلى أوتار العود وترا خامساً واخترع له مضراباً من قوادم النسر بدلا من مرهف الخشب، كما وضع للغناء مراسيم تنظمه>> 17، وجاء<< بما لم تعهده الأسماع عندما أرسى القواعد الأولى لنظام النوبة؛ فوضع مراسيم جديدة للغناء تقوم على افتتاحه بالنشيد ثم الانتقال إلى البسيط، والختم بالمحركات و الأهزاج >> [18]، كما اضطلع بالتعليم الموسيقي <<وفق الطريقة التي أقرّها التداول الشائع بالمشرق العربي بين "أصحاب الموسيقى"، على حد تعبير "ابن المنجم" في " رسالة النغم" ورأسهم يومئذ إسحاق الموصلي>> [19]. وبذلك يكون قد أورث في بلاد الأندلس، على حدّ تعبير عبد الرحمن بن خلدون: << صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف،و طما منها بإشبيليا بحر زاخر، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة بإفريقية والمغرب، وانقسم على أمصارها، و بها الآن منها صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها>> [20].

وازداد تعاظم الاهتمام بشأن الموسيقيين والمغنيين من لدن الخليفة عبد الرحمن الثاني أن خصّص في قصره جناحا للمغنيات " قلم" و"علم" و" فضل". واقتدى به في ذلك كثير من الأمراء والأغنياء وعلية القوم في توفير "ستارة الغناء"، أي الجوق النسوي، و" نوبة المغنين"، أي الجوق الرجالي، في قصورهم. ممّا عزّز منزلة الموسيقيين الاجتماعية، حتى في أيّام الإحن والمحن، والفتن التي كانت تعصف بالبلاد من حين لآخر؛ ففي عهد ملوك الطوائف، مثلا، كان كل ملك يحرص على أن يحيط نفسه بعدد لا يُستهان به من الموسيقيين والمغنين، وأرباب الطرب، معتقدا وجودهم إلى جانب غيرهم من النخب والعلماء والأدباء والشعراء يساهم في

تقوية الإشعاع الثقافي والفني لبلاطه، وإضفاء مظاهر البذخ والترف عليه وتلميع صورته[21].

ولم يكن هذا الاهتمام بالموسيقا و أصحابها حكراً على الطبقة الحاكمة وأبناء النخبة فقط، بل إنّ الطبقة الشعبية أيضا كانت تقاسمها ذلك؛ وكانت ممارسة الموسيقى والغناء عادة شائعة وإرثا مشاعا بين عامّة النّاس، والنّص التالي بوضح ما ذهبنا إليه وهو لصاحبه التجيبي [22]، حيث يصف ليالي قضاها بمالقا عام 1015م وهو مريض يقول:<< ... كنت إذا جنني الليل اشتّد سهري وخفقت حولي أوتار العيدان والطنابير والمعازف من كل ناحية، واختلطت الأصوات بالغناء، فكان ذلك شديداً عليّ وزائداً في قلقي وتألمي، فكانت نفسي تعاف تلك الضروب طبعا وتكره تلك الأصوات جبّلةً، وأودّ لو أجد مسكنا لا أسمع فيه شيئا من ذلك ويتعذر عليّ وجوده لغلبة ذلك الشأن على تلك الناجية وكثرته عندهم>> [23].

وقد علا شأن الموسيقى إلى درجة أن بعضا من الفقهاء انتدب نفسه للدّفاع عنها؛ من ذلك ما قاله ابن عربي: << ..وليس الغناء بحرام، فإنّ النبي، صلى الله عليه وسلّم، قد سمعه في بيته وبيت غيره، وقد وقف عليه في حياته>>[24] ، وما قاله، أيضاً، الفقيه ابن عبد ربّه:<< وقد يتوصل بالألحان الحسان إلى خير الدّنيا والآخرة، فمن ذلك أنّها تبعث على مكارم الأخلاق من اصطناع المعروف وصلة الأرحام والذّب عن الأعراض والتجاوز عن الذنوب>> [25]، لأنّ الصوت الحسن << بسري في الجسم ويجري في العروق، فيصفو له الدّم، ويرتاح له القلب، وتهش له النّفس وتهتّز الجوارح وتخّف الحركات>> [26].

وقمّة التعايش والتسامح بين مختلف ساكنة الأندلس على اختلاف مللها ونحلها، مشكلة ما يعرف اليوم بـ " الحوار بين الثقافات والأديان والحضارات"، نلمسه في تلك الصورة التي تشكلّت برقي الموسيقى؛ حيث أهّلها لأن لا تبقى وقفا على العرب المسلمبن وحدهم، بل تدخل كذلك بلاطات الممالك المسيحية؛ كمملكة قشتالة وآراغون فكانت لا تخلو من عازفين ومغنين وموسيقيين مسلمين، وكذلك قصور الأمراء والنبلاء المسيحيين، وقد ظل الأمر على هذه الحال حتى بعد سقوط مملكة غرناطة، يذكر صاحب " الذخيرة "، أنّ << ابن الكنان المتطّبب قال واصفا

مجلس غناء في أحد قصور النصارى فقال: " شهدت يوما مجلس العلجة بنت شنجة ملكة البشكوش زوج الطاغية شنجة بن غارسيه بن فردناند، وفي المجلس عدّة قينات مسلمات من اللواتي وهبهن له سليمان بن الحكم أيام إمارته بقرطبة، فأومأت العلجة إلى جارية فيهن فأخذت العود وغنّت..فأحسنت وأجادت، وعلى رأس العلجة جاريات من القوامات أسيرات كأنّهن فلقات قمر>> 27.

والحديث عن الموسيقا يقودنا، لا محالة، للحديث عن الموسيقيين، ولكن ندرة الوثائق الخاصة بها، بسبب ضياعها أو تعرضها للتّلف والإحراق بأمر من الكنيسة ومحاكم التّفتيش، خاصة بعد سقوط غرناطة، حيث << أمكن للمتحمسين من أتباع الكاردينال خيمينيس أن يفخروا بتمكّنهم من إتلاف مليون وخمسمائة ألف مجلد >> [28]، فضلا عن شّح الوثائق التي سلِّمت من هذه الآفة، حالا دون الوصل للتعرّف على أدّق التفاصيل الخاصة بهم، إلا أنّه أمكننا إحصاء عدد غير قليل من الأسماء التي لمعت في دنيا الموسيقى والغناء بالأندلس نتيجة البحث عن بعض المعلومات المبثوثة في كتب الأدب والتاريخ. ووجدنا هذه الأسماء تنتمي إلى مختلف الأقوام والساكنة المشكّلة للمجتمع الأندلسي من عرب وبربر وأمازيغ ومولّدين ويهود وصقالبة وغيرهم ممّن صهرتهم الحضارة العربية الإسلامية في بوتقة واحدة. نذكر منهم، على سبيل المثال، لا الحصر؛" حمدونة " و" علية "، بنتي زرياب، و"هنيدة " و" متعة " و" مصابيح" و "غزلان"، تلميذاته، زيادة على " قلم" و"علم" و" فضل" والثلاث الأخيرات كن معروفات بالمدنيات لاتّباعهن أساليب أهل المدينة في غنائهنّ. وكلهن عشن في القرن التاسع للميلاد. ومن الرجل نذكر: " أبو القاسم بن الفرناس " (ت 888م)، و"أسلم بن عبد العزيز" زوج "حمدونة " بنت "زرياب"، و " شلومون بن جبرول " من يهود الأندلس عاش في القرن11للميلاد، و " يحيى الخدج المرسي "، من أعيان القرن 12للميلاد، و" أبو بكر بن يحيى الصائغ " المعروف " بابن باجة "(1070- 1138م) الفيلسوف المشهور الذي أطبقت شهرته الآفاق في دنيا العلوم والمعارف، كالطّب والفلك والهندسة والموسيقى، وقد أشاد كثير من الكتاب بنبوغه الموسيقي فهو << في المغرب بمنزلة أبي نصر الفارابي بالمشرق، وإليه تنسب الألحان المطربة بالأندلس التي عليها الاعتماد>> [28]، بل هو << فيلسوف الأندلس وإمامها في

الألحان>> [29]. وتتلمذ عليه عدد لا بأس به من التلاميذ الذين حافظوا على تراثه الموسيقي وأغنوه بعطاءاتهم الفردية، من أمثال؛ " أبي عامر بن الحمارة الغرناطي"، الذي برع في صناعة العيدان ونظم الشعر، و " أبي الحسن بن الحاسب المرسي"، الذي قيل عنه: << وكل تلحين يسمع بالأندلس والمغرب من شعر متأخر فهو من صنعته>> [30].

واستتبع الاهتمام بالموسيقيين والمغنين في الأندلس، ازدهار صناعة الآلات الموسيقية التي واكبت هذا الاهتمام، وتعدّدت أنواعها نتيجة لما عرفته الموسيقى من انتشار وذيوع، وما حظيت به من رعاية وتشجيع من لدن الحكام، وقد ازدهرت هذه الصناعة في كثير من المدن، وبخاصة منها إشبيلية التي قال عنها أبو الوليد الشقندي (ت 1231م)، في رسالته في فضل الأندلس إنّها << قاعدة صناعة الملاهي وآلات الطرب، وليس في بر العدوة من هذا شيء إلا جلب إليه من الأندلس>> [31].

وكل ما هو متوارث من موسيقى أندلسية ببلدان المغرب العربي اليوم، إنما يعود في أصوله إلى إشبيلية، لكن النّاس تعلّقوا بغرناطة حتى جعلوا الطرب الغرناطي مرادفا للموسيقى الكلاسيكية أي الأندلسية تعاطفا معها وشوقا إليها بعد محنتها وسقوطها وهجرة وتشريد أهلها وسكانها، ولكن لماذا ارتبطت هذه الموسيقى أساسا بغرناطة؟؟ مع العلم أن مدينة غرناطة لم تشتهر بالموسيقا قدر اشتهارها بالعلم [32]. وخير دليل على حيازة إشبيلية قصب السّبق والشهرة الموسيقية، هو تلك المناظرة التي جرت بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، بين الفقيه أبي الوليد بن رشد، والرئيس أبي بكر بن زهر، فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة: << ما أدري ما تقول غير أنّه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة، حتى تباع فيها. وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية. قال: و قرطبة أكثر بلاد الله كتبا >> [33]. و في قرطبة قال بعض علماء الأندلس شعرا [34] :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان اثنتان والزهراء ثالثة والعلم أعظم شيء وهو رابعها

والآلات الوارد ذكرها في مصادر الموسيقى الأندلسية الخاصة، والمصادر العامة، بقدر عددها بأكثر من سبعين آلة، مابين وترية وهوائية وإيقاعية ن بعضها معروف وما زال متداولا، ومعظمها ضاع، وأشهر آلة وأحبها للأندلسيين آلة البوق، وهي من آلا ت النفخ، حيث كان لها ولأربابها حضوري قوي في أوساط ممارسي الموسيقى بالأندلس، وهو حضور حمل أحمد التيفاشي على التنويه بها، فأسهب في وصفها، ونعتها بأنّها << أشرف آلة عندهم وأكملها لذّة في الرّقص والغناء، يخرج عند العمل بها، أصوات غريبة عظيمة في غاية الإطراب والإعجاب، وهذا عندهم من أعظم احتفال آلة الغناء والرقص>> [35]. وقد كان عازفو المزامير والنايات والأبواق والطبول خليطا من العرب والمستعربين، وممّن اشتهر من هؤلاء " زربوط الطنبوري"، و"ابن مقيم الزامر "، أحد المطربين الملهين في الأندلس على عهد الحكم المستنصر، و" بشارة الزامر"، و " النكوري الزامر"، وغير هؤلاء كثير ممّن شغلوا النّاس وفتنوهم.

ثانيا- النصوص الشعرية مادة للموسيقا الأندلسية

تأتي النصوص الشعرية في هرم مكونات الموسيقى الأندلسية بوصفها مطية لألحان هذه الموسيقى، ونقصد هنا الحديث عن نمطين من الشعر اختّص بإبداعهما شعراء الأندلس هما التوشيح والزجل.

دأب دارسو الآداب الأندلسية على القول بارتباط ظهور هذين النمطين بتطور الموسيقا في الأندلس المسلمة. ويعلّل بعض هؤلاء ذلك بانتشار الأغنية الشعبية المحليّة بين المتساكنين العرب والمستعربين، والتي كانت مصوغة من لغة هي مزيج من العربية العامية واللهجة الرومانسية، وهي ذاتها التي كانت غالبية النّاس يتحدّثون بها، وهذا دليل على التأثير الاجتماعي واللغوي بين المسلمين وغيرهم. ولا ضير فقد جاء حافلا بصور الحياة اليومية لمسلمي الأندلس إلى جانب عادات النصارى وتقاليدهم بلغة امتزجت فيها العامية الأندلسية باللاتينية. كما أنّ أزجال ابن قزمان تنهض دليلا على التأثيرات اللغوية والاجتماعية في مجال الأزياء والطعام و الاحتفالات [36]. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ العامية الأندلسية المعروفة باسم " العجمية "، أو الرومانسية أو اللطينية شاعت في الأندلس، وهي لغة تختلط

فيها الألفاظ العربية واللاتينية. والراجح أنها كانت شائعة لدرجة كبيرة حتى إن ابن حزم يبدي استغرابه من كون إحدى العائلات الأندلسية المشهورة وهي "دار بلي" لا يحسن أهلها التّحدث باللاتينية [37].

وقد حاول المستشرق الإسباني " آنخل جنثالث بالنثيا "، اعتمادا عل الأبحاث التي قام بها "ريبيرا"، أن يفسّر أسباب انتشار اللغة الرومانسية في الأندلس في الأوساط الشعبية إلى قلّة عدد العرب الأقحاح الذين دخلوا الأندلس [38]. غير أنّه يبدو أن انتشار هذه اللغة إنّما جاء نتيجة التسامح ذي النزعة الإنسانية، الذي سار على هديه الفاتحون، بحيث لم يفرضوا اللغة العربية كما تفعل بعض الشعوب الغالبة، بل تركوا الحية لجميع الطوائف والإثنيات والأعراق لتتعامل بلغاتها المتداولة، فكان من نتيجة هذا التسامح ظهور هذا الخليط من اللغات التي أنتجت اللغة الرومانسية.لكن "بالنثيا" يعود في موضع آخر ليعطي تبريرا معقولا مقنعا مفادُه أن فكرة التسامح كانت وراء ظهور هذه اللغة، زيادة على أن استعمال المصطلحات اللطينية في الزجل على سبيل المثال، راجع لكونه يحتاج إلى بعض العبارات الجارية على ألسنة النّاس في قرطبة، وعامّة النّاس من السّوقة، فضلا عن حاجته إلى بعض العبارات الاصطلاحية التي تنتشر بصفة خاصة بين أهل كل حرفة [39].

هذا عن لغة التوشيح والزجل، أمّا عن " أدائهما وألحانهما "، فإن هنالك عوامل فنيّة بحتة لا شّك أنها ساهمت في نحت وصياغة التوشيح والزجل، فجاء على نحو ينسجم مع ضرورات الغناء، ويستجيب لنسق التلحين الذي ابتكره الأندلسيون وارتضوه نمطا سائرا بينهم، يستأثرون به دون سواهم من الأمصار الإسلامية، ولا يقبلون بغيره أسلوبا للإنشاد. لكأنّما كانت البحور الخليلية تحد من لإبداع الملحن الأندلسي مما تفرضه من قيود تتمثل في هيمنة الوزن الواحد، والقافية المتكررة على امتداد أبيات القصيدة من جهة، ثم بما بفرضه البيت الشعري من رتابة لحنية وإيقاعية يقتضيها النسق المتكرر لثنائية الأشطر من جهة أخرى.

ولا نريد الخوض في أصول ونشأة التوشيح والزجل من الوجهة الأدبية الصرفة، و على الرّغم من تضارب الآراء حولهما، فإنّه لا مناص من الاعتراف بوجود

آثار لتقاليد موسيقية محلية أسهمت إلى جانب الموسيقى المشرقية في تشكيل نمط التوشيح وصاغته على نحو مغاير لما كان عليه أسلوب التلحين.

وتشغل التوشيحات والأزجال من ديوان " الآلة الأندلسية "، أو "الغرناطي"، في المملكة المغربية، وموسيقى " الصّنعة " أو" الموسيقى الكلاسيكية " في الجزائر، و" موسيقى المالوف"، في شرق الجزائر وتونس وليبيا، حيّزا كبيرا يدل على مدى سعة الإقبال علة نظمها، وخاصة في مواقع التصدرة، والقفل في الميازين الأربعة الأصلية (البسيط، القائم ونصف، البطايحي، القدام) وفي غالبية الصنعات الموسعة والمشغولة بالتراتين.

ومثلما أفضت ضرورات الغناء إلى ابتكار الموشح والزجل، فكذلك أفضت إلى ابتكار مقاطع لفظية لا يستقيم التلحين إلا بها، وذلك ما يعرف في المعجم الموسيقي بالتراتين، من قبيل(آنانا، هانانا، طيري طان، يا للان...).

ووظيفة هذه الألفاظ إشباع الجملة اللحنية عندما تمتد وتطول فتصبح الكلمات المنظومة قاصرة عن الإيفاء بها واستيعاب فقراتها. وفي هذه الحالة تدعى الصنعة المغناة على هذا النحو " صنعة مشغولة"[40].

ومهما يكن من أمر، فإن لغة أهل الأندلس، المعروفة " بالعجمية "، لم تقتصر على كونها << وسيلة للتداول في المنازل والشوارع >> [41]، بل غزت أجناسا أدبية أخرى في اللغة العربية الفصحى مثل الأزجال والموشحات. ولعل هذا الامتزاج اللغوي يعبر عن تفاعل الحضارتين العربية الإسلامية والإسبانية اللاتينية، ممّا يجعلها، بحق لغة الحوار الحضاري الأندلسي وقتذاك.

ثالثا- إشعاع الموسيقا الأندلسية

بلغت الحضارة العربية الإسلامية درجة من التطور والرقي جعلتها تؤثر تأثيرا قويا في مختلف مناحي الحياة في أوروبا، وتمهد الطريق لقيام " النهضة" بها. وكانت الأندلس أحد المعابر الأساسية لدخول المؤثرات الحضارية العربية إلى أوروبا، والموسيقا، بوصفها لغة سريعة الانتقال، لا تعرف الحدود ولا تحتاج إلى ترجمة لفهمها والتخاطب بها، كانت من الميادين الأولى التي ظهرت عليها آثار الحضارة العربية الإسلامية، سواء على مستوى الألحان أم الكلمات والآلات.

فعلى مستوى الألحان نجد أن الموسيقى العربية أثرت على ألوان مختلفة من الموسيقى في جنوب غرب أوروبا، بما فيها الدينية، فنجد أن الترتيل الكنسي الإسباني المعروف بالإيزيدوري أو الأوجيني (plain chant isidorien ou eugénien) نسبة إلى واضعيه: القديسان " إيزيدور" و" أوجين "، قد اصطبغ بصبغة شرقية، وزين بكثير من الزخارف الموسيقية المميّزة للموسيقا العربية، فأصبح معروفا بالترتيل الكنسي **المستعرب** (Mozarabe). وغير خاف أن الدولة الإسلامية في الأندلس قد ضمنت لأتباع كافّة الدّيانات السماوية حرية العبادة وسمحت لهم بالحفاظ على تقاليدهم وعاداتهم وشعائرهم، وإذا كان الغناء الديني نفسه قد تأثر بالموسيقى العربية على النّحو الذي بيّنا فإنّ الغناء الدنيوي قد تأثر بها على نحو أعمق بخاصة في إسبانيا والبرتغال، ومنها: Las zambras و Las aravias و Las hudasأي أغاني السمر، والحداة، والأغاني العربية، زيادة على أغاني الفلامنكو الشبيهة جدا بالمواويل العربية.

ومن مظاهر هدا التأثير كذلك اتّباع قالب النوبة في التأليف الآلي الغربي المعروف بـ " Suite " أي " الوصلة "، وهي مجموعة من القطع الآلية تتبع في أدائها حركات مختلفة تبدأ عموما بافتتاحية غير موزونة تعقبها حركات تتدرج سرعتها من الثقيلة إلى الخفيفة السريعة، وهذا هو النظام المتّبع في أداء ميزان النوبة. وتشترك الوصلة مع النوبة في خاصية أخرى، وهي وحدة المقام، أو الطبع (Tonalité)، الذي تلحن عليه قطعها. ويلاحظ أن كلمة Suite ليست سوى ترجمة لكلمة نوبة وأن للفظتين مدلولا واحدا [42].

وأثرت الموسيقا الأندلسية كذلك على نظيرتها الأوروبية بشعرها الغنائي، فأشعار " "التروبادور"، بجنوب فرنسا، و" الطروفير"، في شمالها، و" المينيسانجر"، في ألمانيا، مستوحاة من الموشح والزجل شكلا ومضمونا.

وفي الختام فإن الموسيقى الأندلسية تعدّ، بقيمتها الأدبية والفنيّة، إرثا ثقافيا ضخما للبشرية جمعاء يتعيّن الحفاظ عليه وصيانته، وستظل عبر التاريخ مرآةً لحضارة مشرقة وضّاءة تمكن بُناتها بفضل تكافلهم وتسامحهم الواسع من أن

يجعلوا من عهدها واحدا من أكثر عهود التاريخ رخاءً وعطاءً وإبداعاً سواء بالنسبة للإسلام أم المسيحية أم اليهودية.

وبكلمة، ومن خلال ما تقدّم فإن الأندلس كانت عطاء صادقا لقرون من نشر **ثقافة التعايش والتسامح** ضمن مستويات ثلاث؛ هي التسامح والتعايش الاجتماعي المشترك **بوصفه محصّلة للنزعة الإنسانية التي ميّزت الحضارة العربية الإسلامية**، وحرية المعتقد المبني على " لا إكراه في الدّين"، وسيادة **ثقافة الاختلاف والتّنوع**، ممّا جعل الأندلس **أنموذجا لحوار الحضارات و الأديان والثقافات وتعايشها.**

الهوامش:

(1) التروبادور والعاطفة الرومانسية، ترجمة د.أحمد رضا المحمودي، دار الثقافة العربية: الدار البيضاء/ طرابلس، د.ت، ص 9.

(2) ينظر:- ناجي معروف ود.عبد العزيز الدوري، الموجز في تاريخ الحضارة العربية، مطبعة النجاح: بغداد، 1949، ص ص 159 -161. ولمزيد من التوسع في هذه الخصائص وتأثيراتها ينظر:

- عمر فروخ:* الحضارة الإنسانية وقسط العرب فيها، دار لبنان للطباعة والنشر: بيروت، ط 03، 1983، ص ص 29- 37. * تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين: بيروت، ط 03، 1980. *العرب في حضارتهم وثقافتهم، دار العلم للملايين، ط 08، 1981. *عبقرية العرب في العلم والفلسفة، منشورات المكتبة العلمية ومطبعتها: بيروت، ط 02، 1952.زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب أو أثر الحضارة العربية في أوروبا، نقله عن الألمانية: فاروق بيضون وكمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه: مارون عيسى الخوري، دار الأفاق الجديدة: بيروت، ط05، 1981.د.محمد عبد السلام كفافي، الحضارة العربية طابعها ومقوّماتها العامّة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر: بيروت، د.ت، د.ط، ص ص 52- 66.أحمد علي الملاّ، أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية، دار الفكر:دكشق، ط 02/ 1981، ص ص 115 – 118.

(3) تجدر الإشارة إلى أن دراسة التسامح بين الشعوب والأديان، تستدعي التّحفظ ممّا جاء في بعض المرجعيات الفقهية التي تلون خطابها بنبرة من التّعصب والتّشدّد تجاه بعض الطوائف الدّينية، وتستلزم مقابل ذلك الاحتكام إلى الواقع التاريخي الذي يثبت أنّ المجتمع الأندلسي تجاوز الخطوط الحمراء التي وضعها الفقهاء، وتعامل المسلمون مع كل الطوائف الأخرى على أساس مبدأ الانفتاح على الآخر، بعيدا عن كل أشكال الاستعلاء والتميّز. والانفتاح على الآخر في الحضارة العربية الإسلامية هو أحد الجوانب البارزة فيها، دون شك. و لذلك كانت مسألة العقلانية المتمثلة في الاتّصال والاحتكاك بالحضارات الأخرى تمثل منطلقا شديد الوضوح لدى فلاسفة العرب والمسلمين، سواء في المشرق أم المغرب والأندلس.

(4) من الواضح أن القرآن الكريم عندما يتحدّث عن اليهودية والمسيحية لا يتحدث عن ديانات غريبة، بل يعدّها تعبيرات مختلفة عن الدّين الإلهي نفسه، الذي هو الإسلام من حيث هو تسليم للّه وتوحيد له، ولذا أطلق صفة المسلم على النبي إبراهيم، عليه السلام، في قوله تقدّست أسماؤه{ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِياً وَلا نَصْرَانِياً وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مسلماً }(من سورة آل عمران(03)/ الآية/ 67)، وعدّ مختلف أنبياء التوحيد مسلمين. ومن ثمّ فالفرق بين الإسلام والديانتين الإبراهيميتين الأخريين لا يتعلق بطبيعة العقيدة أو القيم أو الرؤية، بل في بعض الجزئيات التي اقتضتها تحوّلات الزمن واعتبارات التاريخ. فالإسلام هو دين اكتمال المسار الإبراهيمي، ولذا كان لزاما أن يتّسم بالمرونة والانفتاح واليسر ليستوعب اختلاف السياقات الزمكانية. فهو، لهذا السبب، دين يقوم على احترام الاختلاف والتعددية وقبول حرية الرأي والعقيدة. فالتّنوع مطلوب بنّص القرآن الكريم، بل هو من آيات الخلق السامية، كما في قوله تبارك وتعالى:{ ومن آياته خلقُ السماواتِ والأرضِ واختِلافُ ألسِنَتِكُم وألوَانِكُم إنَّ في ذلك لآياتٍ للعالمِينَ } (من سورة الروم (30)/ الآية/22)، فليس من هدف الإسلام حمل الناس على ملّة واحدة أو عقيدة مشتركة، بل إن اختلافهم مطلوب مقصود، لقول ربّ العزّة :{ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحدةً ولا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ} (من سورة ود(11)/الآيتان117، 118)، والحكمة من هذا الاختلاف ضمن السياق القرآني هي التعارف والتعاون على البّر

والتقوى والتّسابق إلى الخير:{ لِكُلٍّ جَعلنا مِنكم شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمِ فِي مَا أتاكُمْ فَاسْتَبْقُوا اَلْخَيْرَاتِ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ}(من سورة المائدة (5)/ من الآية/47).

ونعتقد، لهذا السبب، أقرّ الإسلام حرية العقيدة ونبذ الإكراه في الدّين وقيّد ضوابط دقيقة لتعميق خط التفاعل والتعارف بين بني الإنسان الذين يتّفقون في أصولهم وعمود نسبهم؛ الآدمية والترابية.

(5) التروبادور والعاطفة الرومانسية..، ص 50.

(6) Dosy, Reinhart P.A: la literature éspagnole au moyenne age. Paris, 1950, p 99

(7) نقلاً عن مفيد الشوباشي، رحلة الأدب العربي إلى أوربا، دار المعارف: القاهرة، 1968، ص 109.

(8) ينظر: د.طارق العرباوي، فلسفة الحضارة العربية الإسلامية وتأثيرها في مناحي الحياة العلمية الأوروبية، منشورات دار الحوار، د. ط، د. ت، ص 66 وما بعدها.

(9) نقلا عن د.عمار مطلبي، التقارب الحضاري الإسلامي الأوروبي، مطبعة الزمان: بغداد، ط02، 1976، ص 56.

(10) ينظر: د.عبد القادر زبادية، " الحضارة العربية في عالمنا المعاصر: الأبعاد الداخلية والخارجية لمرحلة انتقالية ودلالتها في إطار مستقبل الحوار العربي الأوروبي"، ضمن فعاليات ندوة همبورغ 11- 16أفريل 1983، ص 160

(11) د.مصطفى السباعي، من روائع حضارتنا، دار السلام: دمشق، د.ت، ص 5.

(12) من ذلك قوله تعالى:{ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وخلَقَ منها زَوْجَهَا وَبَثَّ منهُمَا رِجالاً كثيراً ونساءً}(من سورة النساء (4)/ من الآية01)، وقوله سبحانه وتبارك{ يَا أَيُّها النّاسُ إنّا خلقناكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وجعلناكُم شَعوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا}(من سورة الحجرات(49)/ من الآية/13)، وقوله كذلك، تقدّست أسماؤه:{ ولَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي البَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ على كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا}(من سورة الإسراء(17)/ الآية/ 70)..

(13) كثيرة هي أحاديثه، صلى الله عليه وسلّم، التي تفيض حناناً ورحمةً وحباً للإنسان كل الإنسان وتندفع وراء مصالحه، كقوله عليه الصلاة والسلام: << لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون فيه ثلاث خصال: الإنفاق من الإقتار، والإنصاف من نفسه، وبذل السلام>> (أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدّين، ج2، مطبعة البابي الحلبي: القاهرة، 1934، ص 196).

وقوله، أيضاً: << الخلْق كلهم عيال الله فأحبهم إليه أنفعهم لعياله>>، وقوله، كذلك: << رأس العقل بعد الدّين: التّودد إلى النّاس، واصطناع المعروف إلى كل برّ وفاجر>>(نفسه: ص 199)، وقوله، أيضاً:<< أفضل الفضائل أن تصل مَن قطعك، وتعطي مَن حرمك، وتصفح عمَّن ظلمك>>(نفسه: ص 198).

(14) من أهم الوثائق المرجعية التي تحدّد إطار علاقة المسلمين بالدّيانات الأخرى وصية الخليفة الراشد الأوّل أبو بكر الصدّيق ليزيد بن أبي سفيان؛ أمير جنده المتوجّه صوب الشام، وهي وثيقة هامّة تحدّد قانون وأخلاقيات الحرب في الإسلام:<< إنّك ستجد قوماً زعموا أنّهم حبسوا أنفسهم للّه، فذرهم وما زعموا أنّهم حبسوا أنفسهم له ..وإنّي أوصيك بعشر: لا تقتل امرأة ولا صبيا، و لا كبيرا هرما، ولا تقطعن شجرا مثمرا، ولا تخربن عامرا، ولا تعقرن شاةً ولا بعيرا إلا المأكلة، ولا تحرقن نخلاً ولا تغرقنه، ولا تغلل ولا تجبن>> (الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمعها وحققها: حميد الله الحيدر أبادي، طبعة القاهرة، 1956، ص 143).

ورأى سيدنا عمر بن الخطاب، مرّة في السوق شيخاً كبيراً يسأل الصدقة فقال له: ما أنت يا شيخ؟ قال: أنا شيخ كبير أسأل الجزية والنفقة، وكان يهوديا من سكان المدينة، فإذا بعمر يقول له: ما أنصفناك يا شيخ. أخذنا منك الجزية شابا ثم ضيّعناك شيخا. وأخذ بيده إلى بيته فرضخ له ما كان من طعامه. ثم أرسل إلى خازن بيت المال قائلا: افرض لهذا وأمثاله ما يُغنيه ويغني عياله>> (من روائع حضارتنا..، ص 57، وما بعدها).

(15) ينظر: المقري(أحمد بن محمد)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 3، تحقيق: د.إحسان عباس، دار الثقافة: بيروت، 1968، ص141.

(16) نفسه: ص 140.

(17) د.جودت مُدلج، الحب في الأندلس، دار لسلن العرب: بيروت، ط01، 1985، ص125.

(18) د.عبد الرزّاق إسماعيل الخياط، فصول في تاريخ الموسيقى الأندلسية، دار خالد بن الوليد للنشر والتوزيع:دمشق، ط02، 2002، ص158.

(19) د.عبد الرحمن علي الحجي، تاريخ الموسيقى الأندلسية، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت، ط01، 1969، ص 86.

(20) المقدمة، مطبعة دار القلم: بيروت، 1981، ص 428.

(21) Voire : - Mahmoud guettat, La musique classique du Maghreb, Edition. Sindbad.Paris. 1980, p.172.

- Vernet (j), La culture hispano-arabe en orient et en occident, Barcelonne, 1978. p.93.

(22) و العلاّمة << أبو الحسن علي بن محمد بن أبي القاسم محمد بن أبي بكر بن رزين التجيبي الأندلسي البلنسي، فقيه أديب كاتب كما ورد في مخطوطة الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد>> (فضالة الخوان في طيّبات الطعام والألوان: صورة من فنّ الطّبخ في الأندلس والمغرب في بداية عصر بني مرين لابن رزين التجيبي، حقّقه وقدّم له محمد بن شقرون، أشرف على إعداده: د.إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي: بيروت، ط 02، 1984،ص 14).

واشتهر التجيبي بمؤَلَّفه " فضالة الخوان في طيّبات الطعام والألوان"، الذي كتبه ما بين سنة 636هـ/ 1238م ، وهي السنة التي سقطت فيها مدينة بلنسية، في يد ملك أراجون الأوّل(Jaques 1er)، وسنة 640 هـ/ 1266م التي تغلب فيها النصارى كذلك على مرسية (ينظر: الحميري، الروض المعطار، تحقيق: د.إحسان عبّاس، دار بيروت للطباعة والنشر: بيروت، 1975، ص95.

(23) نقلا: عن د.مصطفى داود الحسني، صور ناصعة من تاريخ الموسيقى الأندلسية والمغربية، دار الحوار للنشر والترجمة والتوزيع: بيروت، طرابلس، ط02 ، د.ت، ص122.

(24) الأحوذي: عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترميذي، ج 5، مكتبة المعارف: بيروت، ص 281.

(25) ابن عبد ربّه الأندلسي، العقد الفريد، ج6، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته ورتّب فهارسه، أحمد أمين وإبراهيم الأبياري وعبد السلام هارون، دار الكتاب العربي: بيروت، ط 03، 1965، ص 08..

(26) نفسه، ص04.

(27) ابن بسّام الشنتريني (أبو الحسن علي)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثاني، مجلد 3، تحقيق د. إحسان عبّاس، الدار العربية للكتاب: ليبيا، تونس، د.ط، 1981، ص ص 318، 319.

(28) Sigrid hunke, Le soleil d'Allah brille sur l'occident : notre héritage arabe. Ed : Albin Michel Paris, 1963. p381.

(28) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب..، ج 03، ص 185.

(29) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج 02، تحقيق: د.شوقي ضيف، مطبعة دار المعارف: القاهرة، 1953، ص 119.

(30) أحمد التيفاشي، رسالة متعة الأسماع في علم السماع، تحقيق محمد بن عبد السلام الصاغي، منشورات دار الثقافة العربية، د.ط، د.ت، ص ص 36،37.

(31) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب..، ج 03، ص 213.

(32) على أن غرناطة قد << استأثرت بالغناء والمغنين في أوّل عهد الأندلس بهذا الفن، فإنّه بتقادم الزّمن انتقل مركز الغناء إلى إشبيلية حتى صارت شبه عاصمة لهذا الفن، وأمّا قرطبة فتفرّدت بالعلم وصارت مدينة النور على عهدها وعاصمة الثقافة ومحتضنة العلوم>>(د.مصطفى الشكعة، الأدب الأندلسي: موضوعاته، وفنونه، دار العلم للملايين: بيروت،، ط 04، 1979، ص 89).

(33) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب..، ج01، ص 214.

(34) نفسه.

(35) رسالة متعة الأسماع في علم السماع..، ص 45.

(36) ينظر: د.إبراهيم القادري بوتشيش، المغرب والأندلس في عصر المرابطين، دار الطليعة: بيروت، 1993، ص 72.

(37) ينظر: جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، طبعة القاهرة، ط 04، د.ت، ص 443.

(38) ينظر: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة: حسين مؤنس، مكتبة النهضة المصرية: القاهرة، 1955، ط01، ص 158.

(39) نفسه: ص 160.

(40) ينظر: د.عبد العزيز بن عبد الجليل، الموسيقى الأندلسية المغربية: فنون الأداء، سلسلة عالم المعرفة، ع 1988، ص 110.

(41) ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان قرقوط، دار بيروت للطباعة والنشر: بيروت، د.ت، ص 79.

(42) Voire : - Michel Gérard (j) , La musique arabe en Andalousie .Paris.1948. pp- 115- 125.

- Alain Daniélou, Traité de musicologie comparée. Paris. 1959. pp- 85-90.

- Mahmoud guettat, , La musique arabo-andalouse, Paris, 2001. pp- 36-39.